الشيخ محمد ابو الوفاء الرفاعي*

١٧٦٥ - ١٨٤٧

بقلم الاب فرديناند توتل اليسوعي

خصّ الشيخ كامل الغزي آل الرفاعي بفصل من فصول المجلد الرابع من تاريخه « نهر الذهب ». ولم ينته من تأليفه لما وافته المنية فتركه مخطوطاً رؤوس اقلام ، لكنه ذكر في المجلد الثاني من الكتاب ذاته ، في وصفه المزارات والزوايا ، بيت الرفاعي واقاربهم مما يؤدّي مادّة لتاريخ الاسرة. اما الشيخ راغب الطباخ فاستقى تعليمات عديدة عن ابي الوفاء الرفاعي وعن الرفاعيين من مؤلّفات الشيخ وفاء ذاته ومن غيرها من المصادر ككتاب روض البشر للشطي ، وقلادة الجوهر لابي الهدى الصيادي. وذهب بالاخبار والاعلام متسرعاً ، شأنه في تاريخه العام. على انه افادنا بتعليمات قيمة سهلٌ منالُها في مجموعة ما جمعه من اعلام النبلاء.

على هذه الاصول الثابتة ، وعلى ما اخذناه من الاحياء معاصرينا من الفوائد ، وضعنا اساس ما كتبناه عن ابي الوفاء. ومن الكتب التي رجعنا بالقارئ اليها نحتنا مواد بناء ترجمة تاريخية مستوحين نظام ترتيبها وتنسيقها مما رأيناه وعرفناه في حلب مسقط رأسنا من اخلاق ومشاهد كانت في سني صغرنا ولم يزل الكثير منها في يومنا يمثل تمثيلاً حياً موافقاً للحقيقة ، حالة البلدة في القرن الماضي .

على ذلك المسرح الخيالي تعرّفنا الى اسرة الرفاعي ، ثم اظهرنا محمد وفاء طفلاً في حضن ابويه ، وتلميذاً بين ايدي مؤدّبيه ، وشاباً محط آمال اقاربه واصدقائه ، ورجلاً مفكراً ادبياً يشار اليه بالبنان ، وشيخاً وقوراً مقصوداً من مريديه ، في تلك البيئة الاسلامية المتورّعة المستيقظة بمظاهر التقوى واحياء مراسيم الطرق الصوفية عما فقدته من عزّ ونفوذ بانتقال سلطة السيف من العرب الى الاتراك .

---

* هذه الترجمة نتمة لبحثنا في اولياء حلب المنشور في «مشرق» السنة الثالثة ، ص ٢٢١

الاسم واللقب

ان لقب الرفاعي معناه المنتسب الى احمد بن علي بن ابي العباس مؤسس الطريقة الرفاعية. وهذا توفي في ٢٢ جمادى الاولى سنة ٥٧٨ هجرية (٢٣ ايلول سنة ١١٨٣) في ام عبيدة من مقاطعة واسط وسمي الرفاعي نسبة لقبيلة رفاعة. وكانت تلك القبيلة قد هاجرت سنة ٣١٧ هـ. (٩٢٩ م) الى اشبيلية في اسبانية ثم انفصل منها رجل اسمه احمد قاصداً الى البصرة فكان جد مؤسس الطريقة. وهذا اخذ الاجازة، ولبس الخرقة، وكثر عدد مريديه وخلفائه، ومنهم الرفاعيون في حلب.

اول من نتعرف اليه من الرفاعيين الحلبيين شاهين. كان شريفاً وجندياً، ومات سنة ١٦٩٥ م. وبعد موته بخمسة اشهر، ولد ابنه عمر، جد ابي الوفاء صاحب المنظومة، وربي في حضن عمه عبد القادر. تعلم القرآن ودرس في المدرسة الحلوية، وتلقن التجويد، واخذ الالحان وكيفية الانتقال من نغم الى نغم مع طول النفس بالانشاد فبرع في ذلك الفن. وقرأ الاجرومية وتضلع من المعارف الدينية ونسخ الكتب بيده وصار عالماً من العلماء بالمعنى المعهود به عند المسلمين (راجع المشرق ١٩٤٠، ص ١٢٩). وفي السنة ١١٤٨ عُهد اليه بامامة جامع الرضائية ومدرسته المعروفة بالعثمانية فانتقل الى دار عظيمة قريبة من الجامع المذكور مشهورة بدار الجربوعي وهناك رزق ولداً سماه محمداً الا انه لم يقم طويلاً في تلك الدار لرداءة مناخها.

وللرفاعيين في يومنا زاويتان او اكثر، منها واحدة في حارة البياضة، وثانية بالقرب من حارة الاكراد. ولهم دور السكنى في كلتا الزاويتين.

ثم نعلم ان محمداً تزوج ثلاث زوجات، ونعرف ايضاً انه كان غنياً وجيهاً فلا يبعد ان يكون قد اسكن كل واحدة منهن بيتاً خاصاً بها كما سيفعل ابنه صاحب المنظومة الذي سنراه يقضي يوماً في حارة الاكراد ويوماً في البياضة.

وكانت احدى زوجات محمد عمر شاهين الرفاعي الست آسية بنت السيد محمد الزنابلي الشريف، ووالدة محمد ابي الوفاء.

من حضن الوالدة الى المدرسة القرآنية

ابيض اللون صبيح الوجه اسود العينين مليح الانف والفم على غاية من الجمال ، بهذه الصفات وصف احد مترجمي محمد وفاء[1] ملامحه الخارجية . ولم يذكر مؤرخو شيخنا البيت ولا الحيّ اللذين تدرج فيهما . لكن حفيده الامام توفيق افندي الوفاعي أكّد لنا ان ابا الوفاء كان يسكن حارة الاكراد حتى اذا دخل السنة الخامسة او السادسة من عمره ارسله ابواه الى المدرسة في جوار مسجد خيرالله . فيدخلها الصبي ويتعلم قراءة القرآن وكلما يبلغ منه جزءا يرسل ابوه الى المعلم هدية فيفرح المعلم ويفرح الصغار . حتى اذا خُتِم القرآن دُعي المعلم مع الاولاد الى بيت الولد الناجح في دروسه وتقام لهم حفلة شائقة قد طالما شهدنا من امثالها في صبانا : يسيرون موكباً يتقدمه المطربون وضاربو المزاهر والطبول والعازفون بالناي ، وتمشي وراءهم زمرة الدراويش من الطريقة المولوية او غيرها . ومن المعلوم ان ابا الوفاء سوف يناخر بطريقته الوفاعية ويسافر ويقطع الصحراء للوقوف على اسرارها . فلا شك انه ربي على الولع بمظاهرها وقد حفّت به منذ نعومة اظفاره . اليك الاولاد يحملون الاعلام الصغار وغيرهم يحمل الاعلام الكبار ويخفقون بها على الرؤوس في الازقة المكتظة بالمارة فتقف حركتها ويصطف فيها الناس الى اليمين والى الشمال ويوسعون الطريق للموكب . ويمر الولد راكباً على حمار ابيض ومن ورائه شيخه راكباً على برذون وبيده العصا ، عصا التأديب ، وهناك رجل يحمل الكرسي وعليه المصحف ، وغيره بيده المبخرة فيبخر دفعاً لشر الجن فلا يحسدوا الصبي الناجح ، وغيره ينثر على الناس شعيراً اتقاء للاصابة بالعين . هو الطواف في الشوارع ، والنساء ينظرن اليه من خلال شعرية الى ان يعود القوم بالصبي الى بيته فيضيفهم الاب الفستق والزبيب وبزر البطيخ والجبس والقضامة الحلوة والمالحة وشيئاً من الفستق الحلبي اللذيذ .

---

١) راجع ط ٧ : ٢٩٠ عن المرحوم قسطاكي حمصي . وسألت المرحوم قسطاكي عن سنده فيما رواه عن ملامح محمد وفاء ، فقال انه اخذ وصفها عن حفيده .

مرادنا طلب العلم

عظيماً كان شأن الخطّ في ذلك العهد والمطابع العربية كانت نادرة ، والآلة الكاتبة غير موجودة . فكان كل طالب مجتهد طموح الى بلوغ المعالي ، لا بد له من ان يتقن قواعد الخطّ . في سبيل ذلك الاتقان عمل محمد وفاء وهو صبي يافع ويبلغ مأربه فصار يحسن الكتابة بيده اليمنى واليسرى وشهدنا من اثاره في ذلك دليلاً واضحاً على نجاحه . نشأ وترعرع وصار يرافق اباه في روحاته وجيئاته ، وزار معه يوماً الشيخ اسماعيل الكيالي فكان لتلك الزيارة تأثير بعيد المدى في حياتـــه لان ذلك الولي ابن الولي كان من الـسادات الاشراف قوي الاحوال والكرامات اعترته الجذبة فصار يخلع ثيابه ويدور في الاسواق فتهابه العامة وتخشى مقاومته ومخالفته وبطشه وكان يتكلم احياناً كلاماً غير مفهوم فتعتبره الناس اشبه بكلام ملهم واذا التقطوا منه مـا فهموا معناه اخذوه استوسموا منه خيراً . وكذا جرى مع محمد وفاء فانه لما وقف مع ابيه بحضرة الشيخ اسماعيل الكيالي نظر الشيخ اليه وسأله قائلاً:

« اي شيء تقرأ من العلوم؟ »

فتحاشى الغلام الجواب بحضور ابيه فتكلم عنه محمد الرفاعي ابوه وقال:

« الان مشتغل بالكتابة »

فقال الكيالي: «ما لنا والكتابة نحن مرادنا العلم والتعلم هذا الزم لنا من غيره » .

فخرج محمد وفاء وعقله وقلبه توّاق الى تحصيل المعارف.

وكانت المدرسة العثمانية شهيرة في ذلك العهد بوقفها في مركز المدينة القديمة في جوار الاسر الاسلامية الكبرى، وببناياتها الفخمة ومنارتها اجمل منارات حلب وما الى ذلك من مقام للصلاة ودور للسكنى وفسحة وارفة ومياه، وكانت ممتازة بجلسها ومكتبتها ودروسها وكان من اساتذتها الشيخ حسن المدرس المولود في كلز سنة ١١٦٨ هـ. (١٧٠٤ م) والمتعلم فيها والراحل منها الى قيصرية وبهنسة ، والمقيم من بعد في حلب ، موقّراً بالعلوم التي تلقنها في اسفاره فكان يعلم فيها

اللغة التركية ويستحق من ثم لقب المدرس لنفسه ولأهله. فتعلم عليه محمد وفاء وكان مع ابيه لما لقيا الشيخ مصطفى الكوراني فيما كان راجعاً من حفلة الذكر الشاذلي فاستحسن الشيخ مشاهدة الفتى ودعاه لسماع دروسه في العثمانية ايضاً. وكان صوفياً اديباً فلا بد ان ايقظ في محمد وفاء المواهب الادبية والميل الفطري الى التصوف.

ومن كبار العلماء الذين تعلم عليهم محمد وفاء اسماعيل المواهبي المولود سنة ١١٦٠هـ. (١٧٤٧م) وكان يختلي في الصالحية كل سنة اربعين يوماً ثم يأتي الجامع الكبير فيجلس على كرسي موضوع تجاه مقام زكريا. ويجلس الناس فيسمونه. وكأني ارى بينهم محمداً ابا الوفاء الرفاعي غلاماً غضاً يلفت الانظار بملامحه الذكية يقعد بين السامعين فيتعلم العلوم كما كانوا ولم يزالوا يلقنونها في جوار المساجد من قراءات وصرف ونحو وبيان ولغة وفقه وتفسير الى غير ذلك من المعارف التي يفاخر بهـا اشراف المسلمين ارثاً خاصاً بهم فيحافظون عليه ويسلمونه خلفهم. فتعلم محمد وفاء ونبغ واثرت معارفه بمؤلفات شعرية ونثرية وقد وفقت الى تحصيل المنظومة التي خصصناها بهذا الدرس وفتشت عن باقي المؤلفات في حلب فلم اعثر الا على القليل منها بعدما ان تجهزت المنظومة للطبع اما لاختها فلا اقل من ان ارويها على علاتها اخذاً عن راغب الطباخ وهذه هي:

١ رسالة في خواص الاسماء السهروردية وسلسلة اسناده بالاذن بها
٢ مجموع فرائد ومجربات له مأذون بها من اشياخه
٣ رسالة فقهية في اركان الدين الخمسة
٤ القصيدة المجانية وشرحها لأحد الافاضل
٥ الفصول الوفية في السادة الصوفية مشتمل على مقدمة وعشرة ابواب
٦ منظومة في ٧٥٦ بيتاً نظم فيها من دفن في كل تربة وزاوية من علماء الشهباء واوليائها.
٧ السوانح الراقية في الفواتح الكافية (مجهول)
٨ رسالة في بحث سجود القلب الذي ذكره سيدي محي الدين ويليه مختصر ترجمة سيدي محي الدين
٩ رسالة نظم بها الاولياء والصحابة لا على الترتيب وترجم كل واحد منهم بالافراد
١٠ رسالة في بيان الجوامع والمساجد والمدارس والتكايا التي في حلب. لم اطلع عليها
١١ مولد نثر اوله يامن اظهر كبرياء مجده

١٢ مولد نثر اوله الحمد لله الذي انزل على عبده الكتاب
١٣ مولد نظم اوله بعد حمدالله رب العالمين (مطبوع)
١٤ شرح الجاجرتية وبيان خواصها
١٥ مولد اوله الحمد لله الذي افاض من قبضة فضله المحمود على صفحات الوجود
١٦ مولد اوله الحمد لله الذي اظهر شموس انوار النبوة المحمدية .
١٧ مولد اوله الحمد لله الذي اطلع في سماء الازل شمس انوار معارف النبوة
١٨ رسالة في خواص دائرة سيدي ابي الحسن الشاذلي
١٩ (كذا) رسالة استثنائية
٢١ (كذا) رسالة في خواص حرف القاف ويليه دعاء لطيف وورد ويليه قصيدة استثنائية له .
٢٢ رسالة ضبط بها اسماء اهل بدر على القاعدة النحوية وترجم بعضهم ويليها استثناء باسمائهم بالافراد والترتيب

على ان الراوية ذاته اتانا باشعار من نظم المترجم وهي جديرة بالدرس فضلاً عن المنظومة وحقيقة بان تزيدنا معرفة الى شخصية ابي الوفاء الرفاعي .

الشاعر الاديب والمفكر

ان ما اطلعنا عليه من نظم الرفاعي قد ينقسم الى ثلاثة انواع : الشعر الغزلي ، والوصفي ، والتعليمي .

فالتعليمي ممثل في المنظومة وقد وفّيناه حقه من الكلام في مقدمة البحث عن المنظومة . اما الغزلي فوددنا لو اهملنا ذكره وما كان اليق بصاحب المنظومة عن اولياء حلب المشيد بذكر رجالها الصالحين ان يخصّ شعره بمواضيع الحب الصالح التي ترتاح لها القلوب ولا تبلبل الضمائر .

والغريب في ذلك ان راغب الطباخ فتح مجالاً واسعاً لهذا النوع الفاسد من الشعر في ترجمة الشيخ ابي الوفاء وفي ترجمة غيره من الاعلام النبلاء . ولم اقالك في مجالسة الشيخ راغب عن معاتبتي اياه معاتبة الادب والصداقة في ما كتب فقال لا محظور على الصوفيين اذا استعاروا لهجة العشاق المجونية بالمعنى المجازي في مخاطبتهم الحبيب الالهي شأن ابن الفارض ، وعلى ذلك الاسلوب يرى ابو الوفاء في شعره الغرامي واني لا ادري كيف لا يستوحش الصوفي من هذه الاستعارات الشهوانية .

واحسن محمد ابو الوفاء الرفاعي في الشعر الوصفي فقرأناه فامتلأت صدورنا من العواطف الشريفة التي يهيجها في كل من يذكرها مذبحة جامع الاطروش الرائعة وقد ذهب فيها عدد غير قليل من الاشراف الحلبيين ضحية بطش الانكشارية وطغياتهم، ومنهم ابن الشيخ محمد وفاء الرفاعي. ولا بد لفهم قصيدته فيها من ان نعود الى تاريخ حلب فنتصفح اخباره ونقف على اسباب العداوة بين الاشراف وخصومهم مما ادّى الى كارثة آلَ امرُها اخيراً الى الايقاع بالانكشارية انفسهم، والى اضعاف السلطنة العثمانية وابتداء انحطاطها. والبحث يقتبس نوراً من ترجمة الرفاعي ويفيدها ايضاحاً في عصر قريب العهد منا بالزمان بعيد بالعادات والاخلاق، وقد مضى غير مأسوف عليه.

كان محمد ابو الوفاء الرفاعي في السنة ٤٦ من عمره، لما حدثت مذبحة جامع الاطروش. رواها الطباخ والغزي رواية واحدة تدلّ على مصدر واحد، وسمعنا من معاصرينا شيوخاً سمعوا تفاصيلها عن اجدادهم. وخلاصة الخبر انه في رمضان من السنة ١٢١٢هـ. (١٧٩٧م) تغلب الانكشارية على السادة الاشراف وهاجموهم في البلدة اينما استطاعوا السبيل اليهم. وان الشيخ محمد وفاء كان في بيته وابنه معه لما فاجأهما الاشرار ولم يحترموا هيبة الشيخ ولم يشفقوا على دموع الاب وذبحوا ابنه امامه. فهرب محمد وفاء واختفى. هذا ما اخبرنا عنه الشيخ عبد القادر جنباز عن ابيه.

وفي غضونها كان غيرهم من الانكشارية يهاجمون البيوت ولا يحترمون امرأةً ولا يحنّون على ضعيف. ولم تكن احياء البلدة القديمة ومنها حارة السيدا الموجودة الى يومنا في جوار كنيسة الآباء اليسوعيين القديمة غرباً مع ما لها من سراديب ومنعكفات متينة البنيان كانها اروقة الحصون لتمنع الانكشارية عن اقتحام المساكن، فالجئ الاشراف الى مهاجرتها وذهبوا يلتمسون لهم مأمناً في جامع الاطروش ودور الصلاة مقدسة عند جميع الامم فاذا دخلها طريد ليس لقوة بشرية حق في ملاحقته. وما بين جوامع حلب كان للاطروش مكانة خاصة فانه واقع بين القصيلة وساحة الملح وفي جوار القلعة، وعنده تعقد الاسواق كانها تستمد من هيبته مأمناً من ظلم الظالمين ونفاق المنافقين. وكان حكام حلب سابقاً يقيمون

فيه الصلاة ايام الاعياد ومنارته المثلثة الطوابق وباباه الفخمان واروقته وغرفاته تفسح مجالاً للعاكفين للسجود صفوفاً لرب الجنود ومما يزين سحنته ان ذكر الفقراء والمساكين منقوش عالياً على رتاج احد بابيه لان كافل مملكة حلب عمره في سبيلهم ابتغاء لوجه الله تعالى في العشر من شوال المبارك سنة احد عشر وثمانمئة من الهجرة النبوية فكان له ما اناف على الثلاثمئة سنة وهو محفوف بهيئة العبادة والالتجاء الى الواحد القهار لما دخل في حماه السادة الاشراف .

فتعقبهم الانكشارية ولما لم يستطيعوا دخول الجامع وقد اوصدت الابواب في وجههم ضربوا عليهم الحصار فمنعوا عنهم الزاد والماء ثم راودوهم على التسليم وامنوهم على نفوسهم . وما ان استسلم الاشراف الا نقض الانكشارية عهودهم وانقضوا عليهم كالوحوش الضارية فتكاً وذبحاً وتفحيشاً رواه المؤرخون ويأبى القلم تسطير وضعه في هذا المقال . وكان الحاكم التركي غائباً في غضونها .

تركت الحادثة المشؤومة ذكرها السيء على مدى الايام وتنزع عن مأذنة الاطروش طبقتها الثالثة كما تنزع العمامة عن الرأس اشعاراً بالحزن الجسيم ولم تزل الى يومنا في هذه الحالة الرثة ومن ذلك الزمان الى عهد قريب منا ظل الجامع الاطروش مهجوراً من المصلين .

هذه الحادثة تناولها ابو الوفاء ووضع فيه قصيدته الشهيرة ولا ادري هل يوجد في مجلدات الطباخ السبعة على ما فيها من منتخبات الاشعار والروايات الحسنة شعر يضاهي شعر ابي الوفاء في ذكر حادثة الاطروش بجلال الموضوع وصدق العاطفة وقوة البيان .

واعلم ان الشيخ مسلم مستسلم لاحكام باريه فاذا ندب لن يندب الا بعد جولة النظر في حياة الانسان كبير او صغير والاعتبار بمصيره في هذه الدنيا وكل من على وجهها فان . فارتفع في نظمه حكمه الى الاعالي التي بلغها من امثاله الزهاد والمتصوفون العرب . وظاهر انه قلد في هذه المنظومة قصيدة ابي البقاء الرندي في رثاء الاندلس . قال مبتدئاً :

لا يأمنن صروف الدهر انسان ولا نوائبه فالدهر خوّان
فكم اباد من الماضين من ملك له بسطوته عز وسلطان

ابن الملوك التي دانت لعزهم كل الرقاب ومن خوف لهم دانوا
ابن الجبابرة العادون اين اولو الاخدود ام اين كسرى ام اين ساسان
دعوا احابرا فصاروا عبرة رحلت منهم دياو واحياء واوطان
فاصبحوا لا ترى الا مساكنهم فليعتبر من له للحق اذعان
وهكذا الدهر لم تؤمن عواقبه له الينا إساءات واحسان
تبارك الله ما الاسواء دائمة وكلما قد مضى آن اتى آن

ثم يذكر الرفاعي ابنه القتيل ودم الاشراف المهراق فيسترسل الى عبارات وجد واسف تتردد بها الطبيعة حقوقها بعد التسليم المطلق لله ، هي عواطف القلب الجريح بذكر الولد القتيل والاشراف الذين اهرقت دماهم :

كل المصائب قد تسلى نوائبها الا التي ليس عنها الدهر سلوان
هي المصيبة في آل الرسول فقد سارت باخبارها في الناس ركبان
من آل بيت رسول الله شرذمة من النوابغ احداث وشبان

واخذ الان يخبرنا الخبر ويصفه الوصف المختصر كانه الجمر يكوي الفؤاد قال عن الاشراف عند دخولهم الجامع الاطروشي :

أووا لبعض بيوت الله من فرق من العدو وبالاعداء عدوان
فجاء قوم من الفجار تقصدهم بكل سوء لهم بغي وطغيان
لما أحاطوا بهم اليهم التجئوا فأمنوهم ولكن عهدهم خانوا
وباشروا قتلهم بما بدا لهم فبعضهم ذابح والبعض طعّان
او باقرٌ لبطون او ممثل او ضراب سيف وفتاك وفتان
او مقتفٍ اثرَ مهزوم ليقتله وقلبه لدم الاشراف ظمآن
او كاسر عظم مقتول وقاذفه كما تكسر اصنام واوثان
او خائض بدماء القوم مفتخرٌ بالفك مستولع بالقتك ولهان
وكل هذا وآل البيت ما رُقمت لهم عليهم يد والرب ديان
ان يستجيروا بجاه المصطفى نُشدوا او بالصحابة سُبّوا ليت لا كانوا
فلو سمعتَ عويل القوم من بعد إذ يستغيثوا لمدتْ منك أركان
يا رُبَّ مستنصر من ليس ينصره تحت السيوف طريح النفس غلبان
يا ربَّ والدة كيت على ولد فزقوه وما رقوا وما لانوا
يا رُبَّ ارملة ريعت مصاحبها وحولها منه ايتام وصيان

ولو كان في حلب آنذاك حاكم ذكي حازم ساهر على مصالح الرعية لما حدث ما حدث من سفك الدماء واثارة الضغائن التي سوف تسبب ذبائح غيرها مما يزول

امره اخيرًا الى خراب مملكة بني عثمان. لكن الباشا فضل ان يغيب ابان القتل والفوضى ولم يهمه أن غيابه في مثل تلك الازمة أشبه بهرب الجندي في ساعة الجهاد. ولم يخفَ امر المأساة عن السلطان سليم الثالث ، ولكن لم يكن بوسعه ان يكسر شوكة الانكشارية ، وهم ركن الدولة المتين وكان يهابهم اشد مما يهابونه. لكن السياسة التركية طويلة الباع بالحيل فماطلت. وجاءت حملة نابوليون على مصر وعلى فلسطين فشغلت البلاد عن المشاكل المحلية ووجهت الانكشارية الوفاً الى القطر المصري ومنهم سبعة آلاف حلبيون على ما رواه كامل الغزي (٣١٥:٣) وخرج معهم المتطوعون من الاشراف متناسين ما حلّ بذويهم من الغدر وفي الشدائد تذهب الاحقاد. ورجع الحلبيون من الحملة على بونبرت ظافرين وزيّنت البلد لقدومهم. وكان كلما خرج باشا ودخل باشا سعى في تقريب الفئتين المتعاديتين من اشراف وانكشارية ولسنا مطلعين على دور الرفاعيين في تلك الحوادث لكن ذكر وقوع ابن الشيخ محمد وفاء ضحية بطش الانكشارية والبيت الذي ختم به الرفاعي قصيدته قد يفيدنا ان صرخته سوف يتصدى لها السلطان وما هي الا صوت من الوف الاصوات التي كانت تتصاعد من اطراف المملكة العثمانية شاكية ظلم الاغاوات ومطالبةً بكفهم عن متابعة استبدادهم بالرعايا.

قال الرفاعي مستغيثًا بهم المناصرين :

الا ذوو نجدة الا ذوو همم الا ذوو غيرة للحق اعوان
الا عصابة حق للتقى انتدبوا لنصرة الدين اكفاء واقران
الا اماجد ذبوا عن نبيهم الا حماة لعرض المصطفى صانوا
اهذا جزاء رسول الله من فئة قلوبهم ملؤها اثم وبهتان
لا خير في عيشة والمصطفى هدف لاسهم الظلم ذا والله خسران
ان لم تقوموا بكف الشتم عنه فمن يقم به ولكم بهزه شان
قوموا لنصرة دين الله واعتصموا على اناس لهم الحق خذلان

ودخلت السنة ١٢٢٨هـ/١٨١٣م. فقيض للسلطان محمود الثاني ان يرسل الى حلب حاكماً محمد جلال الدين ابن چوچان. وكان هذا مراوغاً لا يخاف الله ولا الناس وكان قد علم بما دبّره عزيز مصر محمد علي في نكبة المماليك

سنة ١٨١٠ فحذا حذوه ودخل حلب واستقر في جوار تكيّة الشيخ ابي بكر وتظاهر بعاطفة التديّن . ودعا الانكشارية الى وليمة فاتوه غير مبالين بما يضمره لهم صاحب الوليمة فلما دخلوا الدار اغلقت عليهم الابواب وقطعت رؤوسهم فنالوا بذلك الجزاء على فظائعهم وما ظالم الا سيلى باظلم . ولم يكن اهل الذمة من المسيحيين ليخلوا من براثن الاسد فحول الباشا الانظار اليهم عن القتلى وامر بان يعتموا بعمائم زرق ويلبسوا البابوج الاحمر ليفرق بين زيّهم وزي المسلمين وذلك التعصب لارجاع اوامر الخليفة المتوكل المحقرة اهل الذمة كان حيلة يحتال بها الباشا ليدني فتكه وقساوته في سفك دماء المسلمين .

وطالما الف المسيحيون في ايام الشدة والضيق عند وقوع ازمة سياسية او اجتماعية ان يروا لهم نصيرًا بين اعيان المسلمين لأن رابطة الجيرة والاصل اقوى من ان تقطعها صوارم الايام . وكان شيخنا الرفاعي قد نشأ في القرب من حارة الاكراد وهي بمعظمها مسيحية . فكان له الاثر الطيب في التقريب بين الطائفتين .

رفاعي فخلوتي شاذلي قادري نقشبندي

لماذا هذه الالقاب ؟ لم احصّل عليها كلّها الا خلسةً في مراجعة مكتبة توفيق افندي الرفاعي ، إمام العثمانية في حلب . وذلك في مطالعة مخطوطة كتاب الفصول الوفية في السادة الصوفية ، ولم اتمكن من مراجعته على مهلي .

هي الطرق الصوفية الخمس التي انتمى اليها محمد وفاء . فالرفاعية منها ذكرنا اصلها عند ذكر اسرة الرفاعي . اما الخلوتية فهي فرع من السهروردية البغدادية . والشاذلية هي طريقة علي الشاذلي التونسي . والقادرية تنتسب الى عبد القادر الجيلاني مدير المدرسة الحنبلية وشيخ الرباط في بغداد . أما النقشبندية فمؤسسها بهاء الدين النقشبندي في الهند . وهذه الطرق أشبه بالاخويات عند المسيحيين . وكما ان الرجل الواحد يمكنه ان ينتمي الى مجتمعات مختلفة ويدخل في حكم نظاماتها ان لم تكن متناقضة ، فكذلك دخل محمد ابو الوفاء الرفاعي في الطرق المذكورة وكلها في اساسها تبتغي التصوف او الانقطاع الى عبادة الله انقطاعاً ممتازًا عن عبادة العامة وان تكن تختلف بعضها عن بعض باختلاف

اصلها واصل مؤسسيها ومراكزها واساليب الصلوات والممارسات فيها والاغراض التي تتغرضها والوسائل التي تستعملها في سبيلها ومنها السحر والرقى .

ليس المقام لتعداد التكايا في حلب وقد اتينا في نشر المنظومة وشرحها على ما يغنينا عن ذلك ، لكننا نرغب في معرفة شخصية محمد وفاء الصوفية وقد تأثرت من العلل العامة التي ساعدت على نشر التصوف بين المسلمين واتصفت بصفات كل من الطرق المذكورة .

ترجم الشيخ وفاء لنفسه فذكر بين من تعلم عليهم الطرق اسماعيل الكيالي صاحب الزاوية ، والبركة التي يقصدها الناس للاستشفاء في جوار الجامع الكبير ؛ والشيخ مصطفى الكوراني الشاذلي مدرس المدرسة العثمانية ؛ فلبس الخرقة ، وأكل اللقمة ، وجاور المقامات في المساجد ولم يحل كونه متزوجاً ان عكف من حين الى حين الى الخلوة طبقاً للاساليب الصوفية . ومن المعلوم ان المريدين والمشايخ الصوفيين ينصرفون مدة الى عباداتهم . ثم يرجعون الى حياتهم المعتادة في دورهم فيسعون في كسب الرزق لعيالهم . فعمل محمد وفاء لدينه ودنياه وبالغ في طرق التصوف فلم يكتف بواحدة منها ، واتخذها وسيلة للعمل في سبيل دنياه فنجح النجاح الباهر .

علينا ان نتبع خطواته في هذه الناحية الخاصة من حياته فنراه في القسطنطينية يتقرب الى السلطان ويلفت نظره وينال من ثم اعتبار رجالات الدولة واركانها ، ويعود الى حلب مؤيداً بالانعامات الشاهانية ، فيجلس على سجادة المشيخة الرفاعية ويلجأ الباشاوات الى الاتمام به رشيداً ونصيحاً . وان تحدث الحملة المصرية ويرحل الى العراق كالمنفي ، فيعود منها مزداناً بآثار الصالحين الصوفيين المتبركين من زيارة قبر عبد القادر الجيلاني ، فيستحق لذويه المكانة العالية ويرى ابنه بهاء الدين مفتياً على الديار الحلبية ولسان حاله يقول :

ما احسن الدين والدنيا اذا اجتمعا

في دار السعادة

بين الاوراق القديمة التي اطلعني عليها في داره السيد عبد اللطيف الرفاعي خطابٌ مؤرّخ في سنة ١٢١٥ ه. (١٨٠٠ م) موضوعه حثّ المسلمين على الجهاد في سبيل خلع نير بونابرت عن مصر. ولا ادري هل الخطاب من قلم ابي الوفاء الرفاعي. لكن حفظه في بيته دليل على اهتمام الرفاعي بمصالح السلطان ومناصرته. هذا ومن المعروف ان الاشراف الحلبيين اشتركوا في الحملة على مصر آنذاك، وان حلبياً كان قاتل كليبر القائد الشهير الذي كان اقامه بونابرت حاكماً على القطر المصري، وان الحلبيين، كما رويتا سابقاً، عادوا ظافرين من حملتهم. ولرجال الدين مكانتهم وتأثيرهم في نجاح الحملة، وكان الرفاعي فيها قلباً واحداً معهم. فظل يلتمس الفرصة لاستغلال نتائجها لبيته ويترقب الوقت الموافق للسفر الى الاستانة سعياً في تحصيل الحماية التي يجدها في العاصمة طلاب الوظائف اذا ما وفقوا الى الاتصال باولياء الامر، وله في موالاته السلطان وفي الدعاية الى الجهاد في سبيله ما ينمي في قلبه الامل بالمعالي.

وفي السنة ١٢١٩ ه. (١٨٠٤ م) توفي والده الشيخ محمد. فتصور الابن البار قائماً بواجب ابيه المرتحل، ثم منصرفاً الى تدبير شؤونه العائلية وليس بعيداً عن الفكر امكان وقوع الخلاف على الزعامة الرفاعية بعد موت ابيه وقد كان مستحكماً امره حتى في ايام حياته (راجع الطباخ ٧: ١٦٣) فصمم ابو الوفاء النية على بتّ الخلاف بالالتجاء الى الباب العالي. وبالرغم عما نعرفه من ثروة عائلته قد يكون وقع في ازمة مالية احوجته الظروف الى فكها بالسفر. تلك الازمة مع الخلاف الذي حصل بينه وبين خصومه منوّه عنها في النشيد الذي الفه، وهو متوجه الى استنبول، ويقال انه كتبه على ورقة ورماه في البحر طلباً توسم منه خيراً، فنفت فيه نفسه بالمحزون ولعله بالحزن اشار الى وفاة ابيه. ثم شكا الظلم وطلب النجاة والنصر على خصمه. واليك الشعر ببعض ادواره، وهو مشهور الى يومنا يُتلى في حلقات الذكر وقد سمعتُ في ضبطه عن لحنه الاصلي بالعلامات الموسيقية الغريغورية لانها اصلح من العلامات الموسيقية القياسية

ملحق للعدد الثاني (نيسان حزيران) ١٩٤١

صفحة ١٧٧

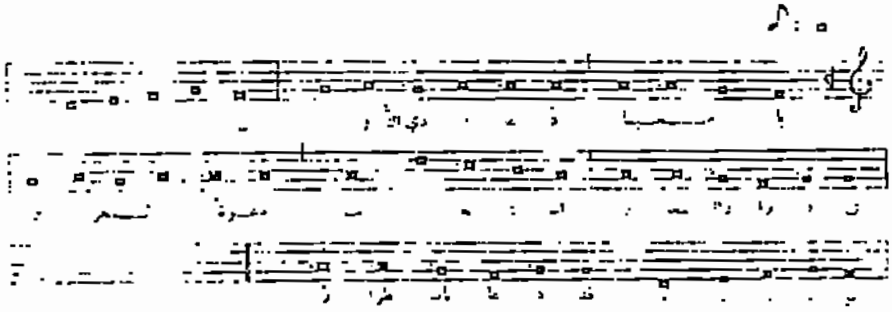

لحن نشيد ابي الوفاء الذي يتلى في حلقات الذكر في حلب الى اليوم.

اضبط اللحن العربي ذي الموجات الشبيهة بموجات الالحان الغريغورية .

يا مجيباً دعاء ذي النون في قرار البحار
استجب دعوة المحزون قد دعا باضطرار

دور يا الهي طالما ادعو موقنا بالمجاه
وتعالي وقصتي رفع الك يا سيّداه
انت منك العطاء والمنّ انت انت الاله
لك امر بالكاف والنون ولك الاقتدار
انت من ظلمتي تنجيني فالبدار البدار

دور ملجمُ البحر منك بالقدره أنت نعم العتاد
الجم الضد واكفني شرّه واقض لي بالمراد
ربِّ واجعل هلاكه عبره لجميع العباد
وأذقه العذاب بالهون وارمه بالدمار
ربِّ باغٍ في الناس مفتون في خراب الديار

دور ربِّ بدل عسري بتيسير واتني القبول
بجزيل من حسن ميسور ما اليه وصول
ربِّ وافتح ابواب تدبيري واقضر لي بالدخول
وعلى ما اروم كن عوني واكفني بالوقار
بناتي اقرّ لي عيني انت بالعبد بارّ

والنشيد في سبعة عشر دوراً اكتفينا منها بما رواه الطباخ .

ولم تكن عاصمة بني عثمان، على ما فيها من الآثار الاسلامية الرائعة ومن المساجد الفخمة، قد ألفت سماع الغناء الديني والاناشيد المتقنة. وقد روى لنا بها. الدين الرفاعي في ذلك اخباراً لها محلها في مقالنا؛ دخل بتية ابيه الشيخ وفا. جامع آياصوفيا فقال[1] عنه :

« لا يوجد له نظير في سائر البلاد الاسلامية ولا يوصف ما فيه من الغرايب والعجايب . قال لي بعض المجاورين هناك ان تحت القبة مكان اثني عشر الف مصلي. ورأينا خلقاً كثيراً منهم مجتمعين على شيخ يقرأ القرآن العظيم يقال له القصيدجي ممن زعموا ان ليس عندهم من يقرأ مثله وهو لا يقاس لأدنى قارئ من ابناء العرب ومنهم من اجتمعوا على رجل سقطه[2] يقول :

١) راجع جريدة سفر الشيخ بهاء الدين المحفوظة في بيت السيد عبد اللطيف الرفاعي في حلب .
٢) سقطه لفظة تركية معناها طالب العلم .

قال رسول الله صلى الله عليه ، باعلى صوت وبالبكا والنحيب ويترك الحديث والكلام ويبتدي بنقل حكاية ثم بعد ان ينتهي يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ويترك ويقول : خطر لي ان اذكر لكم حكاية لطيفة ، وينقلها . ومنهم من اجتمعوا على رجل اعمى يقرأ درساً ومنهم من اجتمعوا على عبد اسود يقرأ قراءة ما انزل الله بها من سلطان . ومنهم من يصلي ومنهم من يسبّح ومنهم من يدور في ارض الجامع والخلاصة خلق لا يعلم عددهم الا الله تعالى وفيهم الاكابر والرجال .

وبناء الجامع لا يوصف الا بالنظر لانه في غاية من الظرافة والمتانة وفي جهتي القبة الشرقية والغربية صورتان زعموا انهما صورتا الملكان الكريمان [كذا] سيدنا ميكائيل وسيدنا جبرائيل عليهما الصلاة والسلام وفي نفس القبلية ايضاً من الجهة الشمالية كوبان عظيمان من الحجر المرمر الابيض ينبع الماء من داخلها وسأذكر من عجائبها ان شاء الله تعالى اذا دخلتها ثانياً »

فلو كان الناس قد اعتادوا سماع القرآن بلسان عربي لا تركي وعن قارئ تعلّم التجويد فاجاد ، لما اقبلوا ذلك الاقبال على سماع « القصيده جي والسقطه والعبد » وقد طالما عاب العرب الاشراف ذلك الخلل على الاتراك ولا عجب ان تذرّعوا عند الفرصة السانحة بحسن لفظهم واتقان تجويدهم لكي يستعطفوا الاتراك وينالوا مودتهم . وان الشيخ ابا الوفاء كان عالماً وشاعراً عربياً مجيداً ، وفضلاً عن ذلك كان مغنياً مطرباً ومنشداً آخذاً بالباب سامعيه له صوتٌ رخيم جهوري يُسمع عن بعد يثير العواطف ويستذرف العبرات . ولما كان يخطب او ينشد او يقرأ في الجامع الكبير في حلب ، كانت الناس تقف صامتة في الازقة المجاورة فتسمعه كانها مسحورة ، وها انه بلغ استنبول وعرف ان يوم الجمعة سوف يكون يوم صلاة السلطان في جامع آيا صوفيا . فالتمس الاذن بالقاء خطابه ولما جاء الخليفة العثماني واقام في الموضع المهيأ له تحرك ابو الوفاء من موضعه وصعد المنبر واندفع يخطب خطبة الدعاء فادهش الناس واخذ بمجامع قلوبهم بصوته الجهوري المطرب ولسانه العربي الفصيح . ويسأل السلطان : من يكون الخطيب ؟ واذ يعرف انه ابو الوفاء الرفاعي ، يدعوه اليه ويلقي عليه خلعة ملوكية وهي كرك المشايخ وعصا المشيخة . وظل هذا الاثر معروضاً للناظرين في بيت الرفاعي في حي البياضة في حلب ثم اندثر . ونال الرفاعي امانيه بلفت نظر امير المؤمنين اليه وصار موضوعاً لاحترام الخاصة والعامة . لقد وصف بهاء الدين في جريدة سفره الحفاوة التي تمتع بها والده بين كبار الموظفين وصغارهم من الصدر الاعظم

الى الخديجي . وربما تناول وصفه رحلة غير الرحلة التي نحن بصددها . لان ابا الوفاء سافر مرات الى استنبول لكن اثباتها في هذا الموضع مناسبٌ للمقام مبيّن حسن تصرف الرفاعي مع الناس . فيتصل بهم ويرتبط معهم بعرى الصداقة ، فيستفيد منهم ويجعلهم واسطةً بين يديه في البلوغ الى غايته وهي تحصيل البراءة في الزعامة . وسوف يُقام ابنه مقتياً في حلب ويتسع بوجاهة وعظمة تذكر الى يومنا ولن يقطف تلك الاثمار الناضجة الا بعد ان يكون قد غرس ابوه اشجارها . وهوذا الآن وقت الغرس . وان من علامات ذكاء ابي الوفاء وفطنته وفراسته ومعرفته اخلاق الرجال انه لما دخل استنبول لم يستنكف عن ان يقصد موظفاً معزولاً بل طلب توسطه عند غيره لعلمه ان المعزول عن الوظيفة ألينُ عريكةً من المتشع بها وان « الدنيا دولاب » في جميع بلاد الله وخاصةً عند الاتراك . وربَّ مملوك اصبح مالكاً فيُقبِّلُ الايادي في اليوم وتُقبَّلُ يداه في الغد . جاء في جريدة الشيخ بهاء :

« محمد حسيب باشا اوقاف وضرخانه مشيري سابقاً — لما دخلنا الى اسلامبول فحال ان سمع بنا ارسل قايقه (١ الذي يركب به بثلاث جفتايات (٢ وطلبنا اليالي (٣ فذهبنا لليالي . فحال دخولنا كان نائباً ايفظوه فخرج للتقائنا ولاقا جناب الوالد بتقبيل الايدي والاكرام التام والاعتنا الذي لا يثل وادخلنا الى دايرة المابين وصار يدور بنا اماكنه العظيمة ويرينا ما عنده من العجايب واللطايف واستقبلنا عنده الى مساء تلك الليلة فقال لي في اي مصلحة اتيتم فقلنا له في تجديد البرآءة فقال انا الان معزول ولكن وان كنت معزولاً بمسمى رسول الله انا اخدمكم هذا الخدمه وارسل طلب مفتش الاوقاف وقال له شيخنا مراده يخلف ولده في الطريق ويفرغ عليه تولية التكية فلاجل خاطري تعمل تمام الخدمه في هذه المادة ولا اريد الا البراءات تكون عندي فقال له على الراس والعين فحينئذٍ بارك لنا حسيب باشا في المخطابه والتكية وقال لا بد من نزولكم الى قلم الاوقاف ويقرر والدك لمفتش الاوقاف حتى يعطى اعلام بوجب تقريره وارسل خبر الى كتخداه محمد افندي بان يذهب معنا الى القلم فتوجهنا لقوناق الباشا وركبنا الخيول من قوناقه وخرجنا بالسلطنه والعظمه الى ان وصلنا الى قلم الاوقاف فقرر لنا بالخلافة والتوليه واعطوا الاعلام على تقريره حالاً ثم وصلتنا البراءه بعد ايام قليلة وخلاصة الكلام ان الوزير الموما اليه رجل تجمل من لطف وكمال وودّ واعتقاد نفعه الله بذلك بحرمة النبي وآله

---

١) القايق لفظة تركية اي الفلوكه او السفينة الصغيرة .
٢) الجفتايات اي المقاذف .
٣) اليالي اي المقام الصيفي .

وصحبه . باليه نعمه من الجنة سنه في بيلريكي يعرف ببالي حليل افندي ليس له مثيله في تلك البقعة . في بستانه انواع الفواكه المتنوعه المثمره والمياه العذبه والزخرف والزينه حتى ان فيه اشجار تشابه كولاه المولي واشجار تشابه شجر السرو كانهم مغصوصات بالبيكار وفيه الطرنج بانواعه والتفاح العظيم وجميع الفواكه وخلاصة الكلام عديم المثال وصاحبه مُجِلٌّ له أنعم به واكرم فرج الله كربه واصلح حاله ومآله ! »

بعد انقضاء الشهرين ، فكر ابو الوفاء بالعودة مع ابنه الى حلب ، وقد شقَّ عليهما الم البعد عن آلهما . فقطعا ورقة السفر وتجهزا لركوب السفينة ولكن أُلجئا الى البقاء في العاصمة الى ان يتيسر الرحيل في سفينة اخرى لكثرة عدد المسافرين في اليوم .

ولنا في جريدة بهاء الدين سرد الحوادث ، وهي بسيطة لا شأن لها ، لولا علاقتها بالمترجم وبعدة اسماء باشاوات وآغاوات وافندية ظهروا فيها بمنزل عن الحياة العامة كالممثلين المنتظرين دور تمثيلهم وراء ستار المسرح ، وقد يتوقعون الساعة الموافقة ليحوموا حول الباب العالي ، والسعيد منهم من يوفق الى الاتصال به مباشرةً او بالواسطة .

قال بهاء الدين ابن الشيخ وفاء :

« هنا بالخروج من اسلامبول والتوجه الى الوطن في الوافور الذي توجه منها ثاني رمضان فلم يُقدَّر لنا ذلك لحكمة باهرة . وكانت الموانع من ذلك كثيرة في صورة قالَّة من جملتها تعسر مصاحبة سليم(؟) ولزوم تركه ونزولنا ومنها كثرة الازدحام في الوافور حتى بالغ لنا بعض المشايخ ان الركاب الذين كانوا في هذه المرة الف راكب غير الاحمال والارزاق لان كان محصل قبرز متوجه اليها واحمد باشا للشام وابن غيب باشا وحرمه للشام وحجاج ومكاكره ومن جميع البلاد . فاثنى عزمنا عن التوجه بهذه النقلة وبقينا وبعد ان عدنا للمكان الذي نحن به فحصل عندنا ندم كلي على عدم التوجه والحال انه عين الخير من غير شك ولا ريب فنرجوه سبحانه وتعالى الاتمام بالخير كما احسن حالاً انه ولي الاجابة آمين .

اول يوم من توجه البابور حصل لي قيام الندم والوجد والتعب والمشقة فنزلت الى المدينة اخذت غليون سلمه وعود ورجعت الى القوناق كاني مريض من شهرين .

والم الشقة الذي لا يطاق يلازمني الى ان افطرنا تلك الليلة وصلينا التراويح وبقينا تلك الليلة في اسف عظيم وندم على عدم التوجه مع الوافور وفي اليوم الثاني والثالث والرابع ما طلعت من القوناق ويوم خامس رمضان يوم الخميس ذهبنا الى قوناق دفتر دار حلب لبيب وافطرنا هناك عند داماده [صهره] فريد افندي وابن اخته سالم افندي واعتنوا بنا غاية الاعتنا واظهروا تمام المسنونية واللطف وصلينا التراويح عندهم . . . وعدنا الى السلطان احمد ومعنا

رضوان آغا اللبق فاخذنا من هناك دائرة اركبناها لجناب الوالد وارسلناه الفوناق وبقينا هناك ورأينا الماهية في سلطان احمد كانت تلك الليلة مكتوبة الشكر لله وسرنا من هناك ومررنا على قبر السلطان محمود فبعد ان قطعناه رأينا عشريانتنا الحلبية شريف اغا البابلي وباكير آغا جمالي وعبد الفتاح السمّان قاعدين في القهوة فقصدنا معهم الى قرب الارسنة ومن هناك سرنا سوية الى السلطان ابا يزيد وجلسنا في قهوة ايضاً حصة ثم توجهنا الى دار السيد محمد ديب الشامي وكان عنده تلك الليلة ذكر فحضرناه معهم الى قرب الستة وبعد ان شربنا قهوة توجهنا الى الفوناق فرأينا جناب الوالد ينتظرنا فجلسنا معه الى ان تسحرنا واردنا النوم فما كنا نقدر عليه وذلك اليوم الذي هو صباح تلك الليلة جناب الوالد ما نام الا قليلاً وتلك الليلة جاء عزت باشا فريق بغداد وفطر معنا في فوناق الحاج باكير آغا وصلينا التراويح وجاء لعندنا السيد عبد القادر واخيه السيد طاهر وعبد اللطيف واستقبلنا معهم الى قرب الستة وبعد ان ذهبوا قعدنا مع رضوان آغا والشيخ احمد سامحنا الله بمنه وكرمه انه ارحم الراحمين.

يوم السبت سابع رمضان المبارك زعم بعض الجهلة ان الله سبحانه وتعالى لا بد ان يُدخل النار لهؤلاء الخلق الموجودين لسوء أفعالهم وخبث احوالهم. فقلت له الانسان لا يعرف الا حقيقة حاله فقط وليس له علم باحوال الناس فاذا قلتَ عن الناس انهم افعالهم سيئة فيكون هذا مرآتك لان المؤمن مرآة اخيه. فصار يجيب باجوبة تنفر طباع البشر. لعدم اكتراثي بما اجاب ما حفظت له ولا جواب وعلمت ان جوابه السكوت لانه رجل محاجج مع انه غير عالم بما فرض الله عليه حق العلم ولا بما يجب لله وما يجوز وما يستحيل. ولا يمثل ذلك للانبياء عليهم السلام ولكن سبحان الحكيم الذي لا اله الا هو جل جلاله لا يسأل عما يفعل.

يومها شرف جناب الوالد لعند محمد باشا الكلبي يسّر الله امره وذهب معه رضوان اغا اللبق والحاج باكير اغا ارسل طلبه القبوكتخدا والي بغداد حفظه الله واخبره انه طالبين المذكور في الباب وذلك اليوم جناب الوالد عدل عن الرواح لعند محمد باشا وراح لعند عصمة بك زاده عارف بيك افندي وبات عنده تلك الليلة فداراه للغاية ثم الغفير بقيت في الفوناق وكان السمّان التاجر الشامي اخو مصطفى ثم في اليوم الثاني خرجت الساعة الثامنة من النهار الى آق سراي وركبت الى اما يزيد من هناك مشيت الى تحت القلعة فواجهت جناب الوالد عند السيد عبد القادر وعزمت علي ان لا اعود للافطار تلك الليلة للفوناق فدعاني طاهر آغا المؤذن الى بيته للافطار وذهبت تلك الليلة وصلينا التراويح عنده وبعد الصلاة خرجنا الى القهوة التي بالقرب من بيته ورأينا هناك عبد اللطيف وقعدنا حصة ثم عدنا الى الفوناق من طريق آق سراي وفي الليلة الثانية افطرنا في الفوناق والتي بعدها دعانا عبد القادر آغا المؤذن وافطرنا عنده واستقبلنا بعد الصلاة ثم عدنا الى الفوناق والتي بعدها في الفوناق والتي بعدها عند طاهر آغا ايضاً الصدر الاعظم الحاج عبد الرؤف باشا اجتمعنا به مرات عديدة وفي كل مرة نرى زيادة في التلطيف والمحبة ثم انه عمل تمام الاهتمام في مصلحتنا ادام الله بقاه والمنّة لله ولما اردنا تغيير ورقة الوافور ارسلناها له مع صايب افندي فاخذها بعد ما كان عمل فرمان على غيرها وقال لصايب افندي ان هذا الرجل لي معه تمام الحقوق والمودة وهو ممن يمتنع لانه عديم المثال

ولكن انا نسب تقادم العهد ما عرفته من اولى الشيء تمام المعرفة ولا عاملته بما يليق في حقه مع انه حفظه [الله] كان يقوم ويلاقي الوالد في نفس المسند والمنة فه في كل حال »

قدوة المشايخ والعلماء

في السنة ١٢٣٧ هـ. (١٨٢١ م) حدثت الزلزلة الشهيرة في حلب وقد تركت اثرها ليس في ذاكرة اجدادنا فقط ولكن في بنايات البلد ايضاً لان حي التلل اخذ ينشأ على ذلك العهد وصار يجرّ معه السكان من داخل البلدة القديمة الى الاحياء الجديدة الغربية . وتشققت جدران كثيرة بالهزة العنيفة في داخل حلب واصبحت بيوت عديدة غير صالحة للسكنى وكذلك قل عن المعاهد وخاصة الكبيرة منها كالجوامع والكنائس. ولا ادري في اي حالة كانت زاوية الترابي وهي زاوية الشيخ وفاء ، بعد الزلزلة. ولكن من الاكيد انه في السنة ١٢٤٢ هـ (١٨٢٦ م) زار المكان علي رضا باشا وعهد الى الشيخ محمد وفاء الرفاعي بامر تعميرها. وصارت الفرصة لرابطة قوية بين الشيخ وفاء وبين الباشا ولما تحول هذا الى بغداد ارسل واستدعى اليها صديقه الشيخ محمد وفاء فسافر الرفاعي مع ابنه بهاء الدين الى دار السلام في السنة ١٢٥٣ هـ. (١٨٣٧ م) وكان آنئذٍ ابراهيم باشا حاكماً عسكرياً في حلب من طرف ابيه محمد علي ، عزيز مصر ، وكانت رحى الحرب تدور بين المصريين والعثمانيين وكان للرفاعيين ولاؤهم المعروف نحو الدولة والخليفة فلا يبعد ان يكون محمد وفاء قد اغتنم فرصةً من دعوة والي بغداد لكي لا يخطر الى الاتصال بابرهيم باشا عدو السلطان ، فضلاً عما كان هناك من داعٍ دبني يجذبه الى زيارة قبر الشيخ عبد القادر الجيلاني . فمضى الى بغداد والتقى بعلمائها وسمع منهم الاحاديث وحدثهم عما قرأه وتعلمه. « ونال تمام الاكرام والاحترام والاقبال » وعاد بالسلام الى حلب . وكان قد زار دار السعادة في السنة ١٢٢٠ هـ. (١٨٠٥ م) في ايام مشاغب الانكشارية ومخاصماتهم في الشهباء. فعاد وزارها مرة ثانية بعد عودته من بغداد الى حلب ولا شك انه نال من الخليفة وكبار الدولة احتراماً بليغاً ، ورجال الدين لهم آنذاك مكانتهم الرفيعة عند سلطان المسلمين وهم قدوة الشعب في تأييد السلطة . والشيخ محمد وفاء

كان قد دخل في السنة الرابعة والسبعين من عمره ، وعليه شارات الطرق الصوفية ، وهو من كبار مشايخ حلب والموكل بحراسة الشعرة النبوية . وكانوا كما قلنا سابقاً يقصدون الى القسطنطينية لتحصيل وظيفة او استزادة نعمة او تسجيل حق يوقف او طلب المصادقة على شهادة ، وللرفاعيين شهادات شاهانية تدلّ على انهم ينتسبون الى البيت النبوي عن الرفاعيين الاصليين . ولعل محمد وفاء كان من العاملين في سبيل اثبات تلك الشهادة من جانب الباب العالي . ومن المعلوم انها كانت تعود عليهم بحقوق المناظرة على اوقاف التكايا المعهود بامرها اليهم . هذا يبدو للنظر على التخمين ولم يتجاوز عندي حدّ الحدس ولم استطع سبيلاً الى التفتيش عن صحته في الوثائق . على ان الامر الراهن هو ان ابن الشيخ محمد وفاء سوف يشغل وظيفة رفيعة في حلب على ايام ثريا باشا[1] فيرونه مفتياً يدور مع الوالي في مجاعة السنة ١٢٨١هـ . (١٨٦٤م) يدعو الناس الى التهاود في وضع الاسعار ، ويقتصّ من اللحامين والخبازين المبالغين في المساومة على الحاجيات .

ودخلت السنة ١٢٦٣هـ . (١٨٤٦م) فحدث في حلب وباء عظيم وكثرت الوفيات حتى ضاق النهار على الجنائزية ، وصاروا يشتغلون في الليل والتزم الناس البيوت خوفاً من ان يدرك احدهم الاجل وهو خارج عن بيته . وكان الشيخ ابو الوفاء قد احس « بالحمى الباردة » كما ذكر ذلك في بدء المنظومة وهذه هي في عرفهم الفالج وعلى اثرها ألّف منظومته عن اولياء حلب ملتجئاً اليهم وطالباً شفاعتهم لينال الشفاء . ولا ادري هل ناله ؟ او هل تحقق فيه المثل : فالج لا تعالج ؟ فيكون قد ظل نحو عشر سنوات ملازماً غرفته لا يزور مقامات الاولياء الا بالفكر فيما ينظم المنظومة . واننا نتصوره وقد دخل الخامسة والثمانين من عمره في ربيع الاول من السنة ١٢٦٤ متواضعاً متذللاً لربه وقد نعت ذاته بالعبد الذليل الكسل المذنب العاصي الخؤوف الوجل فيلازم الصلاة والقراءة والعبادة ويردد ذكر الموت طبقاً لقول النبي : اكثروا من ذكر هادم اللذات .

---

١) راجع كتابنا وثائق تاريخية عن حلب ١ : ١٧٣

ويستعد لملاقاة ربه. ثم حان وقت الفراق الاخير والسفرة التي لا عودة بعدها فارتحل الشيخ وفاء الرفاعي من دار الفناء الى دار البقاء .

في تربة الصالحين، عند قبره، شرقي مقام ابراهيم وقفت قبيل غياب الشمس متأملاً ، وجال بي رائد الخيال في ترب حلب وما اكثرها ! فرأيت في خارجها وداخلها عند العزيزية والجميلية والسليمانية والوكيلية شرقاً وغرباً جنوباً وشمالاً قبور اموات لا يحصى عددهم ، بينها قبر الصبي والصبية والطفل والشيخ والاب والام فقلت في نفسي: ما احرانا ابناء بلدة واحدة من ضمت عظام آلنا ارض واحدة ان نعيش قلباً واحداً في ظل المحبة والاتفاق والسلام .

وخفضت نظري فوقع على ضريح الشيخ وفاء فقرأت ما كُتب عليه نقشاً في الحجر :

« اذا ما تولى الله نفس وليه تهون عليه سكرة الموت بالحق
وما هي الا دعوة واجابة ويخلص من رق الكثافة بالعتق »

المراجع

راغب الطباخ : اعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ، ٧ اجزاء – طبع في المطبعة العلمية بحلب ١٩٢٣ – ١٩٢٦

كامل الغزي : نهر الذهب في تاريخ حلب ، ٣ اجزاء – المطبعة الماردونية حلب – الآثار الكتابية العربية على الابنية الحلبية ، كتاب خط ، المكتبة الشرقية ، بيروت رقم 143

Canaan Taufik : *Mohammedan Saints and Sanctuaries in Palestine*, Luzac and Co., London. 1927

Encyclopédie de l'Islam.